الانسجام بين المفاهيم والآليات.
دراسة نصية في كتاب " الإتقان في علوم القرآن " للسيوطي"

Harmony between Concepts and Mechanisms
A textual study of al-Suyuti's *Al-Itqan fi 'Ulum Al-Qur'an* book

وليد بوجلال *

تاريخ الإرسال: 2021/07/15	تاريخ القبول: 2022/03/20	تاريخ النشر: 2022/11/10

الملخص:

تكمن أهمية هذه الدراسة في كونها محاولة للرجوع إلى التراث العربي للبحث عن ملامح الممارسات النصية فيه، فجاءت محاولة لاكتشاف أهم مظاهر انسجام النص القرآني في نظر علماء القرآن عامة وعند السيوطي خاصة، من خلال كتابه الإتقان في علوم القرآن، فتناولت عدة قضايا متعلقة بهذا الموضوع منها: الانسجام النصي، والآليات التي يتحقق بها، على المستوى الدلالي والتداولي، و توصلت إلى أن انسجام النص القرآني وفق ما أورده السيوطي يتحقق من خلال عدة آليات منها: السياق، التغريض، موضوع الخطاب، علاقة الإجمال بالتفصيل.

الكلمات المفتاحية: الانسجام، السياق، النص الخطاب، علوم القرآن.

Abstract:

This paper aims at exploring the most important features of textual coherence from the general perspective of the Quran scholars, as well as from the particular perspective of *al-Suyuti*, through his book *Al-Itqan fi 'Ulum Al-Qur'an*.Therefore, this paper discusses various thematic issues

*جامعة باتنة 1 الجزائر Walidboudjllel@gmail.com

مخبر المتخيل الشفوي بين حضارة المشافهة من جهة وحضارتي الصورة والكتابة من جهة أخرى

such as: textual coherence and the mechanisms leading to its achievement semantically and pragmatically. The results have shown that coherence of the Quranic text according to what *al-Suyuti* mentioned can be achieved through various mechanisms such as: context, thematization, discourse theme, the relationship between the whole and the detail.

***Key words**:* Harmony, context, textual linguistics, discourse theme Quran sciences.

المؤلف المرسل: وليد بوجلال: Walidboudjllel@gmail.com

*** *** ***

1. مقدمة:

إن انسجام القرآن وارتباط أجزائه بعضها ببعض قضية عرضت في كتب الإعجاز القرآني قديما، ومثلت مظهرا من مظاهر إعجازه، فعلماء القرآن أو لو كتاب الله عز وجل عناية خاصة، فعكفوا على دراسته واستنباط مواطن الإعجاز فيه، ومن أبرز الجوانب المتعلقة بدراسة هذا الكتاب المقدس ما يتعلق بانسجامه، وكونه كالكلمة الواحدة متسقة المباني منسجمة المعاني، ولذلك فقد سعى علماء القرآن للبحث عن كيفية انسجام النص القرآني.

تتمحور إشكالية البحث حول كيفية تحقيق الانسجام النصي من خلال ما ورد في علوم القرآن؟ وما هي أهم الآليات التي اعتمدها السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن ليبرز كيف انسجام النص القرآني؟

تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق عدة أهداف منها:

ـ إبراز جهود علماء القرآن و إسهاماتهم في مجال الدراسات النصية قديما.

ـ محاولة الكشف عن مظاهر انسجام النص القرآني من خلال ما ورد في كتاب الإتقان في علوم القرآن للسيوطي.

ومن أجل الإجابة عن الإشكالية وتحقيقا للأهداف المرجوة اتبع البحث المنهج الوصفي وفق قدمته لسانيات النص من إجراءات وآليات لتحليل النصوص ودراستها.

2.مفهوم الانسجام

1.2 الانسجام في الاصطلاح اللغوي:

قال ابن منظور في لسان العرب عن الانسجام: "سجمت العين الدمع، والسحابة الماء، تسجِمهُ وتسجُمُهُ سجما وسجوما وسجمانا، وهو قطران الدمع وسيلانه... وانسجم الماء والدمع فهو منسجم إذا انسجم، أي انصبَّ "[1].

2.2 الانسجام في الدراسات النصية الحديثة:

إن البحث في الانسجام النصي لا يقتصر على الوسائل الشكلية المتعلقة بالمستوى الصوتي والمعجمي والتركيبي، وإنما يتعدى هذه المستويات إلى البحث عن الوسائل التي يتحقق بها الترابط على المستوى الدلالي، لذلك نجده مقترنا فالغالب بالسياق.

الانسجام النصي يسميه (سعد مصلوح) الحبك، وهو "يختص بالاستمرارية المتحققة في عالم النص، ونعني بها الاستمرارية الدلالية التي تتجلى في منظومة المفاهيم والعلاقات الرابطة بين هذه المفاهيم"[2]، فالنص عبارة عن سلسلة من المعاني المعطاة، وترابط تلك المعاني يخضع لمجموعة من الوسائل والعلاقات، وقد اختلفت وجهات نظر اللغويين في تحديد الوسائل المحققة للانسجام النصي، فهذا (روبيرت دي بوجراند) يرى أن وسائل الانسجام تشتمل على[3]:

. العناصر المنطقية كالسببية والعموم والخصوص...

. معلومات عن تنظيم الأحداث والأعمال والموضوعات والمواقف، وهذه المعلومات يستنبطها المتلقي من سياق الموقف.

وذهب "يول وبراون" إلى أن الانسجام شيء غير معطى في النص وللقارئ مهمة بناءه، وقد حددا مبادئ الانسجام في: **السياق وخصائصه:** يتشكل السياق لديهما من: المتكلم/الكاتب، والمستمع/المتلقي، والزمان والمكان، ويؤدي دورا فعالا في تأويل الخطاب[4].

3.لفظ الانسجام عند السيوطي:

استعمل السيوطي لفظ الانسجام في عدة مواضع من الإتقان، وأشار في تعريفه له إلى قضية ترابط الكلام وتماسكه؛ يقول: " الانسجام هو أن يكون الكلام . لخلوه من العقادة . منحدرا كتحدر الماء المنسجم، ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقة، والقرآن كله كذلك " [5].

شبه السيوطي الكلام المنسجم بالماء المتحدر؛ فالماء المتحدر يرتبط بعضه ببعض دون انقطاع، والكلام الذي يتصف بالانسجام و سهولة التراكيب وعذوبة الألفاظ والخالي من التعقيد، يجعل القارئ " يتحرك بسهولة من جملة إلى أخرى، ويقرأ النص كوحدة واحدة وليس مجموعة من الجمل المنفصلة... ومعها يصبح النص وحدة اتصالية متجانسة" [6] مثل الماء المنسجم الذي يتصف باستمرارية التدفق وعدم الانقطاع.

لقد خصص (السيوطي) في (الإتقان) مباحث متعلقة بانسجام الآيات والسور وتماسكها، وأوضح ما عبر به عن هذا الانسجام هو مباحث علم المناسبات الذي يعد من أبرز المباحث التي تظهر من خلالها ملامح التماسك النصي في القرآن الكريم، حيث يتضح من خلاله مدى ترابط النص القرآني وانسجامه وتماسك أجزائه (الألفاظ، الآيات والسور).

4.آليات الانسجام النصي في كتاب الإتقان في ضوء لسانيات النص

يهتم الانسجام النصي بالناحية الدلالية في النص، ويبحث في العلاقات التي تحقق الترابط الدلالي بين أجزاءه، حيث ترتبط المعلومات بعضها ببعض فتكون وحدة موضوعية، يستطيع القارئ من خلاله اكتشاف الفكرة الرئيسية أو الموضوع العام للنص، مما يمكنه من إدراك تماسكه الدلالي[7]، ويمكن تحديد الوسائل التي ينبني عليها الانسجام النصي في القرآن الكريم من خلال كتاب الإتقان في ما يلي:

4. 1 السياق:

يلعب السياق دورا أساسيا في فهم النصوص وإدراك معانيها، كما يساهم في ربط أجزاء النص بعضها بعض، ويعين المتلقي في تأويل النص.

يرى السيوطي أن المفسر ينبغي له أن يأخذ بعين الاعتبار السياق الذي ورد فيه النص، والمتعلق بزمان ومكان نزول القرآن الكريم، ويتجلى ذلك في معرفة أسباب النزول ومعرفة المكي والمدني، لأن ذلك يؤدي دورا فعالا في تفسير النص القرآني ومعرفة معانيه، فقد نقل عن "ابن دقيق العيد" أن " بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن "[8]، كما نقل عن ابن تيمية قوله: "معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب"[9]. وجعل من شروط المفسر معرفته لأسباب النزول.

وإذا كان للسياق دور في فهم معاني النص، فإنه أيضا يقوم بخصر ما أمكن من التأويلات ويوجه المتلقي إلى المقصود، وقد أدرك السيوطي الدور الذي تؤديه أسباب النزول في توجيه فهم المتلقي للمعنى الصحيح، ونقل عدة وقائع دالة على ذلك منها:

ـ أن مروان بن الحكم لما سمع قوله تعالى: ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أوتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم ﴾ آل عمران 188، أُشَكل عليه ذلك وقال: " لئن كان كل امرئ فرح بما أوتِيَ، وأَحَبَّ أن يُحمَدَ بما لم يفعل معذبًا، لنعذَّبنهم أجمعون، حتى بيّن له ابن عباس أن الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، ورأوا أنهم أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه"[10]. وزاد في أسباب النزول " وفرحوا بما أوتوا من كتمان ما سألهم عنه "[11].

يتبين لنا من هذه الواقعة أن عبد الملك ابن مروان اتجه فهمه للآية إلى معنى معين، ولكن سبب النزول وجه فهم ابن عباس إلى المعنى الصحيح لها.

ـ روي السيوطي أن "عثمان بن مظعون" و"عمر بن معدي كرب"، كانا يقولان: الخمر مباحة، ويحتجان بقوله تعالى: ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ المائدة 93. وقد بين السيوطي أنهما لو علما سبب نزولها لم يقولا ذلك، وسبب نزولها كما رواه: أن ناسا قالوا لما حرمت الخمر: كيف بمن قُتل في سبيل الله وماتوا وكانوا يشربون الخمر وهي رجس؟ فنزلت هذه الآية جوابا لسؤالهم.[12]

بين السيوطي أن عثمان بن مظعون وصاحبه فهما من الآية إباحة شرب الخمر، ولكن سبب نزولها بين عكس ذلك.

ـ قوله تعالى: ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا وجوهكم فثمّ وجه الله إن الله واسع عليم ﴾ البقرة 115. قال السيوطي: " فإنا لو تركنا ومدلول اللفظ لاقتضى أن المصلّي لا يجب عليه استقبال القبلة سفرا ولا حضرا، وهو خلاف الإجماع، فلما عُرف سبب نزولها عُلم أنها في نافلة السفر، أو فيمن صلى بالاجتهاد وبان له الخطأ " [13].

قال السيوطي في أسباب النزول: " أخرج مسلم والترمذي والنسائي عن ابن عمر قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي على راحلته تطوعا أينما توجهت به، وهو جاء من مكة إلى المدينة.. ثم قرأ ابن عمر: ﴿ ولله المشرق والمغرب ﴾ وقال في هذه نزلت هذه الآية. وأخرج الحاكم عنه قال: أنزلت ﴿ فأينما تولوا وجوهكم فثمّ وجه الله ﴾ أن تصلي حيثما توجهت بك راحلتك في التطوع"[14].

ـ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إنّ الصفا والمروة من شعائر الله فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما ومن تطوّع خيرا فإنّ الله شاكر عليم﴾ البقرة 158. عقّبَ السيوطي عليها قائلا: " فإن ظاهر لفظها لا يقتضي أن السعي فرض، وقد ذهب بعضهم إلى عدم فرضيتها تمسكا بذلك، وقد ردَّت عائشة على عروة في فهمه ذلك بسبب نزولها، وهو أن الصحابة تأثموا من السعي بينهما لأنه من عمل الجاهلية فنزلت " [15].

روى السيوطي في سبب نزولها: " أخرج الشيخان عن عروة عن عائشة قال: قلت: أرأيت قول الله: ﴿ إنّ الصفا والمروة من شعائر الله فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما ومن تطوّع خيرا فإنّ الله شاكر عليم ﴾ فما على أحد شيء أن يطوف بهما، فقالت عائشة: بئس ما قلت يابن أختي، إنها لو كانت علي ما أَوَّلتها عليه، كانت فلا جناح عليه ألا يطوف بهما، ولكنها إنما أنزلت لأن الأنصار قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية، وكان من أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية. فأنزل الله ﴿ إنّ الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ " [16]؛ أي أنهم لما سألوا الرسول ﷺ عن ذالك أنزل الله الآية، فكان العلم بسبب النزول معينا على توجيه الآية إلى المعنى الصحيح غير الذي فهمه عروة.

دلت هذه الوقائع التي ذكرها السيوطي أن تلك الآيات أشكلت معانيها على مُتلقِّيهَا، ورأوا أنها تحمل معاني معينة بحسب فهمهم لها، ولكن أسباب نزولها وجهت الفهم إلى المعنى الصحيح الذي نزلت فيه، وقد دل هذا على أن السيوطي مُدرِك للدور الذي قام به السياق في توجيه وبيان المعنى المراد من النص، وأنه حصر التأويلات المتعددة في التأويل المقصود.

2.4 التغريض:

وهو كما بَيَّن محمد خطابي "نقطة بداية قول ما ". ونقطة بداية أي نص تكمن في عنوانه أو الجملة الأولى، حيث يثير العنوان لدى القارئ توقعات قوية حول ما يمكن أن يتضمنه ذلك النص [17]. وفي هذا السياق نجد السيوطي يولي اهتماما كبيرا بفاتحة السورة وذلك في حديثه عن فواتح السور، أو كما سماه براعة الاستهلال وحسن المطلع.

يرى السيوطي أن بداية الكلام أول ما يقرع سمع المتلقي، ولذلك وجب أن يكون في غاية الحسن والكمال؛ لكي يُقبِل عليه السامع لتلقيه بالقبول ووعيه، وإلا أعرض عنه ولو كان الباقي حسنا، كما يرى أن جميع فواتح السور جاءت على أحسن الوجوه وأبلغها وأكملها [18].

تتمثل براعة الاستهلال في اشتمال " أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلَّم فيه، ويشير إلى ما سيق الكلام لأجله"[19]، ففاتحة كل سورة مناسبة لموضوعها وغرضها الأساسي، وقد ركز اهتمامه على سورة الفاتحة لكونها مطلع القرآن وفاتحته. "ولذلك قيل: إنها جديرة بأن تسمى: عنوان القرآن، لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة وجيزة في أوله "[20]، وقال في التناسق: " افتتح سبحانه كتابه بهذه السورة، لأنها جمعت مقاصد القرآن، ولذلك كان من أسمائها أم القرآن، وأم الكتاب، والأساس، فصارت كالعنوان وبراعة الاستهلال " [21].

ذكر السيوطي أن سورة الفاتحة تمثل مطلع القرآن، ولذلك جاءت مشتملة على جميع مقاصده فسميت بأم القرآن، ومدار هذه المقاصد كما أشار إليها ثلاثة أمور: توحيد، وتذكير، وأحكام: "فالتوحيد يدخل فيه معرفة المخلوقات، ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله، والتذكير منه الوعد والوعيد، والجنة والنار ... والأحكام منها التكاليف

كلها، وتبيين المنافع والمضار، والأمر والنهي والنّدب "[22]، والقرآن كله كما يرى يشتمل على هذه الأمور.

ونقل في "تناسق الدرر" عن (عبد الله بن محمد الطيبي ت 743هـ) قوله: " وجميع القرآن تفصيل لما أجملته الفاتحة، فإنها بنيت على إجمال ما يحويه القرآن مفصلا، فإنها واقعة في مطلع التنزيل " [23]، وسيتبين لنا ذلك في علاقة الإجمال والتفصيل.

تمثل سورة الفاتحة مطلع القرآن وتشير إلى جميع مواضيعه الجزئية، وهذه دلالة على أن هذه المواضيع منسجمة مع بعضها بعض وتصُبُّ في قالب الموضوع العام للقرآن الكريم، و هو إفراد الله بالعبادة والتوحيد، و الإقرار له بالربوبية و الالتجاء إليه[24].

إذا كانت فاتحة الكتاب تمثل مطلع القرآن وتشير إلى مواضيعه، وتحوي كل مقاصده، فإن فاتحة السورة وحسن مطلعها يساعد المتلقي على معرفة موضوعها العام وغرضها، ويقدم له مؤشرات للتعرف على هذا الغرض، وبذلك يسهل عليه اكتشاف العلاقات الرابطة بين آياتها. ومن ذلك ما ذكره السيوطي في فاتحة النساء.

قال تعالى: ﴿ يا أيّها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالا كثيرا ونساء ﴾، ثم قال: ﴿ **واتقوا الله الذي تسّاءلون به والأرحام إنّ الله كان عليكم رقيبا** ﴾ النساء01. ففاتحة النساء كما يرى السيوطي دلت على موضوعها العام، وما يتعلق به من موضوعات جزئية، حيث تضمنت ما جاءت أكثر السورة في بيان أحكامه: "من نكاح النساء ومحرماته، والمواريث المتعلقة بالأرحام، وأنَّ ابتداء هذا الأمر كان بخلق آدم، ثم خلق زوجه منه، ثم بثَّ منهما رجالا ونساء في غاية الكثرة"[25]، فجاءت فاتحة النساء شاملة لجميع موضوعاتها الجزئية.

3.4 موضوع الخطأ:

يرتبط موضوع الخطاب بالمحور الذي يدور حوله النص[26]، والقرآن كما يرى المفسرون يتمحور حول موضوع رئيسي هو: التوحيد والعبادة، وموضوعات فرعية تخدم كلها الموضوع الرئيسي [27]، وقد أشار السيوطي إلى دور عناصر السياق في بيان وحدة الموضوع القرآني للسور المكية والمدنية .

ذكر السيوطي معايير التمييز بين المكي والمدني، فجعل منها ما يتعلق بموضوع الخطاب؛ فالمكي ما وقع خطابا لأهل مكة والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة [28]، والخطاب الأول مبني على الإنذار الذي يرتبط بمصارعة المفاهيم القديمة على مستوى الفكر، والدعوة إلى المفاهيم الجديدة، أما الخطاب الثاني فقائم على بناء مجتمع جديد [29]، ولذلك كان موضوع السور المكية يختلف عن موضوع السور المدنية، فالأول يخدم قضية العقيدة وتنقيتها من الشرك، أما موضوع السور المدنية فيتجه إلى بناء مجتمع جديد ولذلك كان موضوعه متمحورا حول التشريعات، وتطبيق الحدود للمحافظة على بقائه وحمايته من الانحراف [30]. وبهذا كان الخطاب المكي متعلقا بالعقيدة والمدني متعلقا بالأحكام والشرائع.

أورد السيوطي أمورا أخرى يتحدد منها موضوع كل من الخطاب المكي والمدني وذلك أن " كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية، وكل سورة فيها فريضة أو حد فهي مدنية"[31]. وهذا يبين وحدة الخطاب المكي، فقصص الأنبياء وأخبار الأمم السابقة تعالج قضية التوحيد بين الأنبياء وأقوامهم، أما المدني فيهتم بالفرائض والحدود، لأن المجتمع الإسلامي في الفترة المدنية مجتمع مُوَحِّد. ومما يميز هذه الفترة ظهور طائفة جديدة في المجتمع هي فئة المنافقين، فجاء الخطاب المدني متميزا عن المكي بذكرهم، "فكل سورة فيها ذكر للمنافقين فمدنية "[32].

يتبين لنا من خلال هذا العرض أن موضوعات الخطاب القرآني المكي منسجمة مع بعضها بعض، وتصب كلها في قضية التوحيد والعقيدة، وكذلك موضوعات الخطاب المدني التي تهتم بالشرائع والأحكام وبهذا يكون انسجام موضوع الخطاب القرآني متعلق بالسياق الخارجي والمتمثل في معرفة المكي والمدني.

4.4 علاقة الإجمال والتفصيل:

تعد علاقة الإجمال والتفصيل من أهم العلاقات الدلالية المحققة للانسجام النصي، وقد أفرد لها السيوطي مبحثا في الإتقان، كما بين أثرها في تماسك النص القرآني وانسجامه.

يقول السيوطي: "المجمل ما لم تتضح دلالته "[33]، أو " اللفظ المبهم الذي لا يفهم المراد منه " [34]، وقد اقترن لفظ المجمل بلفظ المفصل "المُبَيَّن"، لأن هذه الآيات التي تتصف بعدم وضوح الدلالة، قد بُيِّنت دلالاتها في آيات أخرى في مواضع أخرى من القرآن الكريم، وهذا يقتضي وجود علاقة تربط بين هذه الآيات؛ هي علاقة التفصيل بعد الإجمال، وهذه العلاقة مستنبطة من النظر في سياق القرآن كله، وقد ذكر السيوطي العديد من الآيات التي تربط بينها هذه العلاقة ومنها[35]:

. **قوله تعالى:** ﴿أحلّت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم ﴾ المائدة 1، فسره قوله: ﴿حرّمت عليكم الميتة والدّم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به والمنخنقة والموقودة والمتردّية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكّيتم وما ذبح على النصب﴾ سورة المائدة 03. فالآية الثانية جاءت تفصيلا لما أجمل في الأولى.

.**قوله تعالى:** ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ الفاتحة4. فسره قوله: ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ثمّ ما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله﴾ الانفطار (17/ 19).

ـ وقوله تعالى: ﴿ **وإذا بُشّر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظلّ وجهه مسودّا وهو كظيم** ﴾ الزّخرف 17، فسره قوله في آية النحل: ﴿ وإذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودًّا وهو كظيم ﴾ سورة النحل 58 .

ـ وقوله: ﴿يا بني اسرائل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوفي بعهدكم وإياي فارهبون ﴾ البقرة40. بيان هذا العهد قوله: ﴿ولقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزّرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا﴾ المائدة 12، فهذا عهده، وعهدهم: ﴿لأكفّرنّ عنكم سيئاتكم و لأدخلنّكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلّ سواء السبيل﴾ المائدة 12.

ـ و قوله تعالى: ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ الفاتحة 07. بينه قوله: ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النّبيئين من ذرّيّة آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرّيّة إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجدا وبكيّا﴾ مريم58.

هذه بعض الآيات التي ذكرها في الإتقان مجملة ثم ذكر تفصيلها، وقد صرح في كتابه "تناسق الدرر في تناسب السور" أن القاعدة الأساسية التي بُنيَّ عليها القرآن الكريم هي قاعدة التفصيل بعد الإجمال، قال: " القاعدة التي استقر بها القرآن أن كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها، وشرح له، وإطناب لإيجازه، وقد استقر معي ذلك في غالب سور القرآن، طويلها و قصيرها"[36].

5. تحليل السيوطي لسورة الفاتحة و انسجامها مع سورة البقرة

بعدما بيّن السيوطي القاعدة الأساسية في بيان انسجام القرآن الكريم، شرع في عرض أمثلة عن ذلك من القرآن الكريم وبيّن أن التفصيل قد يتجاوز السورة الواحدة، ويمتد إلى عدة سور كما هو الحال في سورة الفاتحة التي تمثل خلاصة مقاصد القرآن، فالبقرة تفصيل جميع مجملات الفاتحة، وآل عمران تفصيل مجملات البقرة، والنساء شارحة لبقية مجملات البقرة ومتعلقة بالفاتحة وآل عمران، والمائدة شارحة لبقية مجملات البقرة ومتعلقة بالنساء، وبهذا تزيد قاعدة الإجمال والتفصيل من قوة انسجام القرآن الكريم[37].

لقد فصل السيوطي العلاقة بين الفاتحة والسورة التي تليها باعتماده على القاعدة المذكورة، وهذا جل ما ذكره في ذلك:

. قال تعالى: ﴿ الحمد لله﴾ جاء تفصيله بالآيات التي وقع فيها الأمر بالذكر والدعاء والشكر من سورة البقرة، ومنها: قوله: ﴿وإذا سألك عبادي عنّي فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون﴾ البقرة 186. وقوله تعالى: ﴿ ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربّنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ البقرة 286. وقوله تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ البقرة 152. فالسيوطي يرى أن هذه الآيات التي ذكر فيها الأمر بالذكر والدعاء والشكر، جاءت تفصيلا لقوله تعالى: ﴿الحمد لله ﴾ [38] وهذا التفصيل الذي ذكره في البقرة بعد الفاتحة فيه دلالة ضمنية إلى أن هناك انسجاما تماما بين السورتين وكذلك داخل السورة ذاتها.

ـ أما قوله تعالى: ﴿ ربّ العالمين ﴾؛ فتفصيله من البقرة قوله: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربّكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلّكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ البقرة (21/ 22)، وقوله: ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثمّ استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سموات وهو بكلّ شيء عليم﴾البقرة 29، ولذلك افتتحها بقصة خلق آدم الذي هو مبدأ البشر، وهو أشرف الأنواع من العالمين، وكل ذلك شرح لإجمال ﴿ربّ العالمين﴾ [39].

ـ وقوله: ﴿إياك نعبد ﴾ مجمل شامل لجميع أنواع الشريعة الفروعية، وقد فصلت في البقرة أبلغ تفصيل، فذكر فيها: الطهارة والصلاة وكل ما يتعلق بها والجماعة والزكاة وأحكامها، والصوم وأحكامه، البر والحج، والعمرة، والبيع، والميراث والوصية، والنكاح والصداق والطلاق والخلع والرجعة، والعدة والرضاع والنفقات، والقصاص والديات وقتال البغاة والردة والجهاد، والأطعمة والأشربة والذبائح، والإيمان والنذور والقضاء والشهادات والعتق، فهذه أبواب الشريعة كلها مذكورة في البقرة.[40]

. قوله: ﴿وإياك نستعين﴾ الفاتحة 5، فهو شامل لعلم الأخلاق، وقد ذكر منها في هذه السورة: التوبة، والصبر، والشكر، والرضى، والتفويض، والذكر، والمراقبة، والخوف[41].

ـ و قوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضّالين﴾ الفاتحة (6/ 7). قال السيوطي في بيان ترابطها مع ما ورد في سورة البقرة: " تفصيله ما وقع في السورة من ذكر طريق الأنبياء ومن حاد عنهم من النصارى، ولهذا ذكر في الكعبة أنها قبلة إبراهيم، فهي من صراط الذين أنعم عليهم، وقد حاد عنها اليهود والنصارى معا، ولذلك قال في قصتها: ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليهما قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ البقرة 142، تنبيها على أنها الصراط الذي سألوا الهداية إليه"[42]. ثم يعقّب على ذلك قائلا: " ثم ذكر: ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكلّ آية ما تبعوا تبعوا قبلتك ﴾ البقرة 145. وهم المغضوب عليهم والضالون الذين حادوا عن طريقهم، ثم أخبر بهداية الذين آمنوا إلى طريقهم، ثم قال: ﴿ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط

مستقيم ﴾ البقرة 213. فكانت هاتان الآيتان تفصيل إجمال ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ إلى آخر السورة... وكذلك قوله: ﴿قلوا آمنّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيّون من ربّهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ البقرة 136، فيه تفصيل النبيين المنعم عليهم"[43].

من خلال هذه التحليلات التي عرضها السيوطي في دراسته للعلاقات الرابطة بين سورة الفاتحة وسورة البقرة وبيانه إن كل ما جاء في البقرة هو تفصيل لمجمل ما جاء في الفاتحة، حيث بين أن هناك روابط دلالية بنيت على علاقة الإجمال ثمّ التفصيل، هذه العلاقة التي اعتمد عليها السيوطي لبيان كيفية انسجام النص القرآني انطلاقا مما استكشفه في دراسة الفاتحة والبقرة، ثم يقيس ذلك على بقية السور من القرآن الكريم.

6.خاتمة:

توصل البحث إلى النتائج التالية:

ـ يزخر كتاب الإتقان في علوم القرآن للسيوطي بالعديد من الممارسات النصية التي تقترب من منهج لسانيات النص، حيث نجد العديد من المصطلحات التي تعد من صميم البحث النصي مثل: الحبك، الالتحام، الاتساق، الانسجام، الترابط، السياق.

ـ يتحقق الانسجام النصي على المستوى الدلالي، بالاعتماد على عدة مبادئ يتضمنها الإتقان هي: معرفة السياق، وفواتح السور، وموضوع الخطاب، وعلاقة الإجمال والتفصيل. وهذه المبادئ تتضافر للوصول إلى تحقيق الانسجام الكلي للقرآن الكريم.

ـ تعتبر علاقة الإجمال والتفصيل أهم العلاقات الدلالية التي تكشف عن انسجام القرآن الكريم وترابط آياته وسوره.

ـ إن تحليل السيوطي لسورة الفاتحة ودراسته لكيفية ترابطها مع سورة البقرة فيه دلالة واضحة على أن القدماء على دراية واسعة للممارسات النصيّة وخاصة من الجانب الإجرائي.

وفي الختام يمكن القول أن التراث العربي غني بالدرر الثمينة التي تجذب الدارس الحديث لاستكشاف أغواره في مجال الدراسات النصية، وخاصة مؤلفات علوم القرآن والتفسير وإعجاز القرآن.

*** *** ***

الهوامش:

[1] ابن منظور: لسان العرب، مادة (سجم)، ضبط وتعليق خالد رشيد القاضي، دار الأبحاث الجزائر.ط1، 2008م.

[2] سعد مصلوح: نحو أجرمية للنص الشعري، دراسة في قصيدة جاهلية، مجلة فصول مجلد 10،عدد 1-2 (م1991)، ص154.

[3] روبيرت دي بوجر اند. روبيرت دي بوجر اند: النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب القاهرة، ط1481،1هـ / 1998م، ص103.

[4] محمد خطابي: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1991م.ص 52

[5] جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تقديم وتعليق أبو الحسن مصطفى ديب البغا، دار الهدى عين مليلة (الجزائر). ج2، ص 909.

[6] عزة شبل: علم لغة النص النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب، القاهرة(مصر)، ط 2، 2009م. ص 184.

[7] المرجع نفسه، ص 186.

[8] الإتقان في علوم القرآن ج1، ص 93،

[9] المصدر نفسه، ج1، ص 93.

[10] المصدر نفسه، ج1، ص 93.

[11] جلال الدين السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت لبنان، ط 1، 1422هـ/2002م، ص 68.

[12] السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص 93.

[13] المصدر نفسه، ج1، ص 94.

[14] جلال الدين السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، ص 22.

[15] جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص 94.

[16] جلال الدين السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، ص28.

[17] الطيب العزالي قواوة، الانسجام النصي وأدواته، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد الثامن 2012، ص 70.

[18] جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص 969.

[19] جلال الدين المصدر نفسه، ج2، ص 970.

[20] جلال الدين المصدر نفسه: ج2، ص 971.

[21] جلال الدين السيوطي: تناسق الدرر في تناسب السور، دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية بيروت.لبنان، ج 2، ط1، 1406هـ/ 1986 م، ص 61.

[22] جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص 1034.

[23] جلال الدين السيوطي، تناسق الدرر في تناسب السور، ص 62.

[24] جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ج2، 987.

[25] المصدر نفسه، ج 2، ص988.

[26] خليل بن ياسر البطاشي، الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب، دار جرير للنشر، عمان (الأردن)ط1،(1430هـ.2009م). ص225.

[27] ينظر الطيب العزالي قواوة: الانسجام النصي وأدواته، مجلة المخبر، جامعة بسكرة، ص 72

[28] ينظر: جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص 27.

[29] ينظر نصر حامد أبوا زيد مفهوم النص مفهوم النص (دراسة ي علوم القرآن) المركز الثقافي العربي بيروت،ط 4، 1998، ص77،

[30] ينظر: المرجع نفسه، ص15.

[31] جلال الدين السيوطي، الإتقان، ج1، ص 53.

[32] المصدر نفسه، ج1، ص 54.

[33] المصدر نفسه، ج2، ص 693.

[34] المصدر نفسه: ج2، ص 699.

[35] المصدر نفسه، ج 2، ص 695 / 696.

[36] جلال الدين السيوطي: تناسق الدرر في تناسب السور، ص 65 .

[37] ينظر فتيحة بوسنَّة، انسجام الخطاب في مقامات جلال الدين السيوطي مقاربة تداولية، مخبر تحليل الخطاب تيزي وزو، دار الأمل للنشر، 2012. ص 159.

[38] ينظر: جلال الدين السيوطي، تناسق الدرر في تناسب السور، ص 65.66.

[39] ينظر: المصدر نفسه، ص66.

[40] ينظر المصدر نفسه، ص 67.

[41] ينظر المصدر نفسه، ص 67.

[42] المصدر نفسه، ص 67.

[43] المصدر نفسه، ص 67.68.